

قضايا المعرفة، واللغة، والفلسفة، والأنثروبولوجية في قصة حي بن يقظان لابن طفيل- مقارنة عرفانية.

Issues of knowledge, language , philosophy, and anthropology in Hayy Bin Yaqzan bay Ibn Tufail cermonial approach

تاريخ الاستلام : 2021/08/09 ؛ تاريخ القبول : 2021/12/14

ملخص

تستهدف مادة هذا البحث جملة المعاليم التي توثق قصة حي بن يقظان لابن طفيل، يشكّل فيها نص اللغة الظواهر الوجودية التي يعالجها ابن طفيل ويرتبها، ثم يأتي ما وراء اللغة ليخرج الأشكال من سطحها المستوي إلى منوال الأفضية التي تجعل المفاهيم منتجة، و يمكن الاستفادة فيها من وثيقة تاريخية تتعلق بحقبة زمنية معينة تنطلق من وجهة نظر فلسفية. وإذا كان الاتجاه العرفاني والإدراكي من الاتجاهات اللسانية التي ظهرت بعد رسوخ مستويات التحليل اللساني، فإن هذه المساهمة تضع الاتجاه العرفاني في قصة حي بن يقظان لابن طفيل موضع التطبيق لتواكب إيجابيا ما يصدر من الدراسات اللسانية الحديثة.

الكلمات المفتاحية: الاتجاه العرفاني ، المعجم الذهني، الدلالة ، التداولية ، قصة حي بن يقظان لابن طفيل.

* عيسى مومني

جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 1،
الجزائر.

Abstract

The objective of this article is to present the totality of knowledge that furnishes the story of Hayy bin Yaqzan by Ibn Tufail. A historical document related to a specific era that starts from a philosophical point of view.

If the secular and perceptual trend is one of the linguistic trends that emerged after the established levels of linguistic analysis, then this contribution puts the mystical trend in Hayy bin Yaqzan by Ibn Tufayl into practice to keep up positively with what is issued from modern linguistic studies.

Keywords: Cognitive linguistics, mental lexicon, semantic, deliberative, story of Hayy Bin Yaqzan by Ibn Tufail.

Résumé

L'objectif de cet article est de présenter l'ensemble des connaissances que fournit l'histoire de Hayy bin Yaqzan par Ibn Tufail. Un document historique lié à une époque spécifique qui part d'un point de vue philosophique.

Si le courant séculaire et perceptuel est l'un des courants linguistiques qui ont émergé après les niveaux établis d'analyse linguistique, alors cette contribution met en pratique le courant mystique de Hayy bin Yaqzan d'Ibn Tufayl pour suivre positivement ce qui est issu des études linguistiques modernes.

Mots clés : Linguistique cognitive, lexique mental, sémantique, délibératif, histoire de Hayy Bin Yaqzan par Ibn Tufail.

* Corresponding author, e-mail: aissa_24@yahoo.fr

I. مقدمة

تقدّم هذه القراءة حمولة معرفية لقصة حي بن يقظان لابن طفيل التي تتمظهر في الجانب الموسوعي الذي يؤسس لفهم مقاصد المتكلم وتأويل المعنى المصحوب بخلفيات معرفية، وثقافية، وفلسفية، وأنثروبولوجية، وتمثلات ذهنية في حلقة التواصل تمكن القارئ من الفهم. لذلك نجد ابن يقظان في قصة حي بن يقظان يرسم الطريق ويحدّد الاتجاه، ويملأ الفراغ المفاهيمي، ويستدعي المفهوم المخزّن في ذهن القارئ، ويبني المعجم الذهني الذي يمثل العقل الحرّ الذي يصل الحقيقة من خلال الملاحظة الحسية والتجربة.

وهو ما تؤسس له هذه الأسئلة التي تُشرّع جدوى الاختيار، وتفتح الرؤية على اتساعها، وتكشف الأفق المعرفي لابن طفيل في حوار النقدي مع علماء عصره، ومن سبقه :

فهل وفرت علاقة الاتصال ظاهرة متواترة في الخطاب تُحيل فيها على معناها أو مرجعيتها؟ وهل حقّق استعمال اللغة عند ابن طفيل ما يمكن أن يوجد من العوالم المتنوعة من أحوال القصد، وأحوال المعرفة بالأشياء والكون أحكامًا في الوجود الاجتماعي؟ وأين تظهر عملية ملء الفراغ المفاهيمي وإعادة إكمال النقص وبناء النموذج؟ وهل يقدّم التمازج المعرفي أشياء جديدة للإجابة، ويجعل هذه الرؤية فكرها مفتوح على المستقبل؟ وهل صاحب هذه القصة يعبر عن روح أنثروبولوجية أصيلة. وهذا ما تجيب عنه هذه القراءة.

II. المصطلح الذي يؤسس لهذه القراءة:

إن المصطلح المقصود بالتعريف في هذه العجالة هو مصطلح العرفانية، مادّته: عَرَفَ يَعْرِفُ عِرْفَانًا وَمَعْرِفَةً الشَّيْءَ: أدركه بحاسة من حواسّه، فهو عارفٌ، وعُرُوفٌ. وأدرك: يدرك إدراكًا الثمر: نُصِجَ. -و- الشَّيْءَ: لَحِقَهُ وبلَّغَهُ ونالهُ. -و- المعنى بعقله: فهمه(1).

وله اختلافات اصطلاحية بين الباحثين منها: الإدراكية، والعرفنة، والتعرّف، والمعرفية. واستُخدِمَ الدارسون في المغرب العربي مصطلح العرفانية، ومال المشاركة إلى استخدام مصطلح الإدراكية.

وهذا الاختلاف يكشف "عدم بلوغ التلقي العربي لهذا المنهج مرحلة الإبداع فيه وتأصيله" (2). ممّا يؤشر أن أزمة المصطلح العربي عامّة واللّساني بوجه خاص مازالت قائمة (3).

وتأتي هذه الدراسة لتواكب إيجابيًا ما يصدر من الدّراسات اللّسانية باللّغة العربيّة، ويُقوي ارتباطها بما ينشأ من المعارف الجديدة يمثّل فيها الاتجاه العرفاني أساس هذه الدراسة؛ يرسم بنائية المعجم الذهني في قصة حي بن يقظان، ويحدّد المخزّن منه في ذهن القارئ، ويطرح الاستدلال العرفاني، وتجليات التشكيل المفاهيمي في اللّغة والخطاب ومدى إسهامه في عملية بناء المعنى وتأويله في أثناء التواصل، ومدى توثق عرى الصلة بين هذه المدونة والأبعاد المعرفية، والثقافية، والاجتماعية، والفلسفية، والأنثروبولوجية، للوقوف على الاستراتيجيات التواصلية والإبلاغية في قصة حي بن يقظان لابن طفيل.

III. مساحة الإدراك لدى المتلقي في قصة حي بن يقظان لابن طفيل:

لقد أعاد ابن طفيل هذا الاكتشاف من خلال محاولة أنشأ فيها أن "الفرد الذي يفك شفرة هذه العبارات اللّسانية منوالا يشبه حالة الأشياء في العالم الذي عرفه المتكلم وحاول نقله" (4)، فاتخذ من الأسلوب الرمزي القصصي وسيلة لإجابة سائله عن الحكمة الإشرافية، وجعل من "حي بن يقظان" بطله الإشكالي لهذه القصة.

وهكذا تطلبت إجابة ابن طفيل(5) عن سؤال صاحبه حول الحكمة المشرقية مساجلة فلسفية، يؤسس من خلالها لميزة متفردة في الرؤية "تبدأ المعرفة بنسخ قائم على محاكاة الواقع المدرك، وتتطور المعرفة بعد ذلك عبر ترانتيية من التمثيلات الأيقونية تنطلق من الصور في المستوى الأساسي" (6). وهو المسار الذي اختاره فيقول " ولا تظن أن الفلسفة التي وصلت إلينا في كتب أرسطو طاليس، وأبي نصر، وفي كتاب الشفاء تفي بهذا الغرض الذي أردته، ولا أن أحداً من أهل الأندلس كتب فيه شيئاً فيه كفاية، وذلك أن من نشأ بالأندلس من أهل الفطرة الفاتقة قبل شيوع علم المنطق والفلسفة فيها، قطعوا أعمارهم بعلوم التعاليم، وبلغوا فيها مبلغاً رفيعاً ولم يقدروا على أكثر من ذلك" (7).

إنه لا يكتفي بالنقد فقط لأسلافه من الفلاسفة وعلماء الدين، وإنما يعرض خلاصة كل رؤية ونقاط ضعفها، فيقول عن أبي بكر بن الصائغ "إنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائنه، وذكر أن المعنى المقصود برهانه في رسالة الاتصال ليس يعطيه ذلك القول عطاء بيّناً" (8).

ووجه نقداً لنظرية السعادة للفارابي فقال عنها " فهذا قد أياس الخلق جميعاً من رحمة الله تعالى، وصير الفاضل والشرير في رتبة واحدة، إذ جعل مصير الكل إلى العدم" (9).

ويثني ابن طفيل على موقف ابن سينا، الذي تكفل بكتب أرسطو طاليس وسلك طريق فلسفته في كتاب الشفاء (10). وقال عن جهد الغزالي: أما كتب الشيخ أبي حامد الغزالي، فهو بحسب مخاطبته للجمهور، يربط في موضع ويحل في آخر، ويكفر بأشياء، ثم ينتحلها" (11).

ويبنه ابن طفيل على الرتبة التي توصل إليها، فيقول: " وأما الرتبة التي أشرنا إليها نحن أولاً، فهي غيرها وإن كانت إياها بمعنى أنه لا يكشف فيها أمر على خلاف وما انكشف في هذه، وإنما تغييرها بزيادة الوضوح ومشاهدتها بأمر لا نسميه قوة إلا على المجاز" (12).

وهو حوار نقدي يؤسس فيه ابن طفيل لرؤيته في الذوق والمشاهدة، يعتقد فيها أنه تجاوز ابن سينا، فيقول: " ثم وجدنا منه الآن هذا الذوق اليسير بالمشاهدة، وحينئذ رأينا أنفسنا أهلاً لوضع كلام يؤثر عنا، وتعين علينا أن تكون أيها السائل أول من تحفناه بما عندنا، وأطلعناه على ما لدينا لصحيح ولأنك، وزكاء صفائك" (13).

وهكذا لا يخرج نص حي بن يقظان لابن طفيل عن المجال المعرفي في الأندلس آنذاك، وتساولات تلك المرحلة، كما يكشف أن الكتابة لا تأتي من فراغ، وإنما بعد قراءة وتدوّن. فكان الأفق المعرفي لفهم المعنى في حي بن يقظان ينحو نحو معرفة شاملة، لا بد من التفاعل فيها مع اللغوي، والفلسفي، والتربوي، والأنثروبولوجي.

IV. جملة معالم قصة حي بن يقظان لابن طفيل:

تنطلق تساؤلات القصة من سؤال حول الحكمة المشرقية، وجاءت إجابته قصة فلسفية يمتزج فيها اللغوي، والفلسفي، والتربوي، والأنثروبولوجي. تبدأ القصة لتضعنا في جزيرة من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء، وهي " الجزيرة التي يتولد بها الإنسان كما جاء في القصة، من غير أم ولا أب، وبها شجر يثمر النساء" (14)، ومنها تنتقل لتروي لنا ولادة إشكالية لكائن هو "حي بن يقظان" الذي ذهب رأي للقول بأن

"حي بن يقظان" من جملة من تكوّن في تلك البقعة من غير أم ولا أب، ومنهم من أنكّر ذلك وروى من أمره خبرا "(15)؛ وأنه ولد في تلك الجزيرة من أم هي شقيقة ملك في إحدى الجزر الهندية، وأب اسمه "يقظان" تزوجته خفية عن شقيقها الذي منعها من الزواج، وعندما وضعته خشيت أمّه من نعمة شقيقها الملك. وضعته في تابوت وأرسلت به إلى البحر فحملته الأمواج حتى ألقت به على ساحل جزيرة مجاورة هي جزيرة الوقواق "فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث وعالج الحركة فوق صوته في أذن ظبية فقدت طلاها فتنبت الصوت وهي تتخيل طلاها حتى وصلت إلى التابوت فحصدت عنه بأظلافها وهو ينوء، ويئن من داخله حتى طار عن التابوت لوح من أعلاه، فحنّت الظبية وحنّت عليه ورثمت به وألقت حلماتها، وأروته لبنا صائغا، وما زالت تتعهده وتربيته وتدفع عنه الأذى" (16). وهكذا أخذت ولادة حي بن يقظان في بعض جوانبها شبيها من قصة موسى عليه الذي ألقت أمّه في اليم، قال الله تعالى (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِنْ خِفْتِ عَلَيْهِ فَاَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَتَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) [القصص:6]. كما اهتدى إلى فطرة الاستتار بأوراق الأشجار كأنه يجاري سيرة أبو البشرية في بداية الخلق. وهكذا يعمل ابن طفيل على ملء فراغ المفاهيم بإعادة إكمال النقص من خلال بناء نماذج تعيد التوازن للفكرة لبناء صورة نمطية شمولية.

ومع تلك الظبية بدأ ينمو ويكبر متعرفا على أسرار الجزيرة " إلى أن أسنّت وضغّت، فكان يرتادها إلى المرعى الخصبة ويجتني لها الثمرات الحلوة ويطعمها" (17). لكن موتها كان نقطة تحوّل في حياته جعله يقوم بكل ما يمكن أن يقوم به صاحب العقل الذي يدرك، ويتصوّر، ويتخيّل، فاكتشف من خلاله لغز الموت، ومنه بدأ صراعه مع الحياة ومع البيئة ومع نفسه. وبدأت تستيقظ في ذهنه أسئلة الوجود، والعدم، والروح، والجسد، والله. وهكذا وقّر النص للقارئ فهم خلفية البناء الفكري للذهن، ومثّل المعرفة الموجودة في العالم وبلورتها بصورة مفاهيم.

التقى حي بن يقظان بعد موت الظبية بشخصية ثانية، وهي شخصية "أسال"، و"كان أشد غوصا على الباطن، وأكثر عثورا على المعاني الروحية وأطمع في التأويل" (18). ولكن صعوبة التفاهم بينهما بسبب جهل حي بن يقظان باللغات سرعان ما تجاوزها حي بن يقظان بتعلّمه للغات، على يد أسال "فجعل يكلم حي بن يقظان ويسأله عن شأنه بكل لسان يعلمه ويعالج إفهامه" (19). ومن ثم يقرّر الاثنان الذهاب إلى جزيرة "أسال" والتي يحكمها "سالمان"، و"كان أكثر احتفاظا بالطواهر، وأشدّ بعدا عن التأويل وأوفق عن التصرف والتأمل؛ وكلاهما مجدّ في الأعمال الظاهرة ومحاسبة النفس ومجاهدة الهوى وكان في تلك الشريعة أقوال تحمل على العزلة والانفراد" (20).

وكل هذه الخطابات الاجتماعية التي عاشها حي بن يقظان مع أسال هي أجهزة عرفانية بقدر ما هي أجهزة تلفظ" (21) حول وجود الله، وما جاءت به الرسل، ووردت به الشريعة. فيفشلان في اقناع العامة، ويعودان إلى الجزيرة حيث الوحدة والعزلة والتأمل. فكانت هذه القصة هي جواب من ابن طفيل لمن سأل عن الحكمة المشرقية.

V. بنائية المعجم المعرفي في قصة حي بن يقظان:

إن الطواهر الوجودية التي يعالجها ابن طفيل ويرتيبها، وينظمها، تُمثّل جملة تمثلات في حقل التواصل تنوعت بين المعرفة العقلية، والمعرفة الباطنية، والمعرفة الظاهرية، ونبتت من رحم الفلسفة وتغذت بأفكارها وارتوت.

وهذا ما يتضح في المجاهيل التي تؤثت أقوال أبطال قصة ابن طفيل، والتي قد تنتهى في الدقة فتخفى على غير المتمرس بأسرار اللغة، ويلمح فيها القارئ تدرج حي بن يقظان في مسارات المعرفة من حسية إلى عقلية، ثم ذوقية تحصل من خلالها المشاهدة وتتحقق فيه السعادة (22). وهو ما يتضح في هذه العلاقات الفكرية بين الصورة والمعرفة، وأحوالها الخطابية في مراتب ثلاثة مدعومة بنماذج وأمثلة .

1-V. المعرفة العقلية في قصة حي بن يقظان:

ويمثل فيها حي بن يقظان العقل الباحث عن الحقيقة، فهو يتصفح، ويرى، ويعتقد، وينظر، ويتأمل، في المخلوقات، وفي الأجسام السماوية وكروية الأرض، في مثل قوله " فتصفح جميع الأجسام التي في عالم الكون والفساد من الحيوانات على اختلاف أنواعها النبات والمعادن وأصناف الحجارة .." (23). وقوله " فيرى كل نوع منها تشبه أشخاصه بعضها بعضاً في الأغصان، والورق، والزهر، والثمر، والأفعال واحداً اشتركت فيه، وهو لها بمنزلة الروح للحيوان، وإنها بذلك الشيء واحد" (24)، وقوله: " ثم ينظر إلى الأجسام التي لا تحس ولا تتغذى ولا تنمو من الحجارة والتراب والماء والهواء والذهب، فيرى أنها أجسام مقدر لها طول وعرض وعمق وإنها لا تختلف إلا أن بعضها ذو لون له وبعضها لا لون له، وبعضها حار وبعضها بارد، ونحو ذلك من الاختلافات" (25). وقوله " ثم إنه تأمل جميع الأجسام حياً وجمادها، وهي التي عنده تارة شيء واحد، وتارة كثيرة كثيرة لا نهاية لها" (26).

وهكذا يتكيف مع المواقف الجديدة التي يقوم فيها العقل بعمليات من التزامن أثناء الفعل لتقرير المعنى المراد بناءه على الصورة البصرية التي يستدعيها من الذاكرة متعلقة بالإبصار، والشم، والسمع، والذوق، واللمس، والحركة، والنمو في مثل قوله: "وإذا عمل بالآلة العين كان فعله إبصاراً، وإذا عمل بالآلة الأذن كان فعله سمعاً، وإذا عمل بالآلة الأنف كان فعله شماً، وإذا عمل بالآلة اللسان كان فعله ذوقاً، وإذا عمل بالجلد واللحم كان فعله لمساً، وإذا عمل بالعضد كان فعله حركة، وإذا عمل بالكبد كان فعله غذاءً واغتذاءً" (27).

إنه التوقع اللفظي من المنظور العرفاني؛ كل احتمال لكل متغير يكون حسب مخزون الفرد لا يخرج عن هذه التصورات التي وفرتها العبارة السابقة: العين آلة البصر، والأنف آلة الشم، واللسان آلة الذوق. ومن ثم كان المفهوم المخزن في ذهن القارئ محدد الدلالة يقارن فيه حي بن يقظان بين الكائن البشري والحيوان، فجاءت بعيدة عن كل تشويش للمتغير الدلالي المفاهيمي حيث "كان يرى أترابه من أولاد الأطباء قد نبتت لها قرون بعد أن لم تكن، وصارت قوية بعد ضعفها من العدو. ولم ير لنفسه شيئاً من ذلك. فكان يفكر في ذلك ولا يدري ما سببه" (28).

ونماذج المعرفة العقلية هو ما اختلف به حي بن يقظان عن الحيوانات من خلال التفريق بين سلوك الحيوان وسلوك البشر. وهي نماذج من الافتراضات الخاصة بالتصورات هيأ العقل فضاءها الذهني في قصة حي بن يقظان لابن طفيل، وانفتح فيها النسق اللساني على المحيط البيئي والكوني، وعمل فيها التوقع اللفظي والربط المفاهيمي من المنظور العرفاني. وكلها أوصاف أوجدتها سيرورة التداعي الذهني والاستنباط، والملاحظة الحسية والتجربة، والمقارنة بين الأشباه والنظائر. والكثير من العبارات تؤكد ذلك في مثل قوله: " فلما انتهى نظره إلى هذا الحد، وفارق المحسوس ببعض مفارقه، وأشرف على تخوم العالم العقلي، استوحش وحن إلى ما ألفه من عالم الحس، فتقهقر قليلاً وترك الجسم على الإطلاق، إذ هو أمر لا يدركه الحس، ولا يقدر على تناوله، فأخذ أبسط الأجسام المحسوسة التي شاهدها" (29).

وهذا ما يُيسّر فهم ما يعرضه ابن طفيل في قصة حي بن يقظان على المستوى التمثيلي أو الإدراكي أو التعبيرات المحكمة للغة التي تتمتع بتوازي مطلق بين التركيب والدلالة حول كيفية تمثيل المعرفة الموجودة في عالم القصة ، وبلورتها بصورة مفاهيم تميّز بين الأشياء، وعالم الكون ومشكلة العلة الأولى، بما يوفره العقل من شبكة نظامية تتصفح المشاهد وتعرضها قصد الوقوف على السيرورة الاجتماعية التي تعتمد سلسلة من الأنساق التي تختلف في التحقيق من مشهد إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى.

2-V. المعرفة الباطنية في قصة حي بن يقظان:

وقد مثل فيها "أسال" طريق الباطن، يقول عنه ابن طفيل "فأما أسال فكان أشد غوصا على الباطن وأكثر عثورا على المعاني الروحانية وأطمع في التأويل" (30). و مسيرته في النهاية أوصلته إلى ما وصل إليه حي بن يقظان.

3-V. المعرفة الظاهرية في قصة حي بن يقظان:

وتبرز هذه المعرفة في الجانب الظاهر في معرفة الأشياء، وكان فيها سالمان " أكثر احتفاظا بالظواهر، وأشد بعدا عن التأويل، وأوقف عن التصرف والتأمل" (31).

وبذلك تكشف قصة حي بن يقظان لابن طفيل عن تدرج حي بن يقظان في المعرفة ؛ من معرفة حسية إلى معرفة عقلية، ثم إلى معرفة ذوقية صوفية، تبحث عن المشاهدة (32). وتتلخص كالاتي:

(أ) - تبرز المعرفة الحسية في الملاحظات التي شغلت بال حي بن يقظان وتجربته في العالم الطبيعي والحيواني والجسدي، وهو ما يظهر في قوله: " وكذلك نظر إلى سائر الأجسام من الجمادات والأحياء، فرأى أن حقيقة وجود كل منها مركبة من معنى الجسمية" (33).

(ب) - وتبرز المعرفة العقلية في كيفية تمثيل المعرفة وبلورتها بصورة مفاهيم شغلت علماء الدين والفلسفة من مسألة معرفة الخالق، وقضية قدم العالم وحدوثه، ومشكلة العلة الأولى "فعلم بالضرورة أن كل حادث لا بد له من محدث. فارتسم في نفسه بهذا الاعتبار ، فاعل للصورة، ارتسامًا على العموم دون تفصيل " (34) ، وقوله: "تفكر في العالم بجملته، وهل هو شيء حدث بعد أن لم يكن، وخرج إلى الوجود بعد العدم؟ أو هو أمر كان موجودا فيما سلف، ولم يسبقه العدم بوجه من الوجوه" (35).

(ج) - أما المعرفة الذوقية أو الروحية فتظهر في مناقشة ابن طفيل في قصته حي بن يقظان؛ مصير النفس، والشوق، والسعادة، والوهد، وكل ذلك على طريقة الصوفية، في مثل قوله : " فالشيء العديم للصورة جملة هو والهبولى والمادة، ولا شيء من الحياة فيها وهي شبيهة بالعدم" (36).

ومن ثم أوقف حياته على فعل الخيرات، فكانت سعادته في فعلها، فيقول: إنه ألزم نفسه أن لا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مضرة، أو ذا عائق من الحيوان أو النبات، وهو على إزالتها عنه إلا ويزيلها" (37). وقوله : " فمتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه سبع أو نشب به ناشب ، أو تعلق به شوك، أو سقط في عينيه أو أذنيه شيء يؤذيه، أو مسه ظمأ أو جوع، تكفل بإزالة ذلك كله عن جهده وأطعمه وسقاه" (38). كما التزم بما يحقق له الطهارة المعنوية والمادية "أن ألزم نفسه دوام الطهارة وإزالة الدنس والرجم عن جسمه والاعتسال بالماء أكثر الأوقات، وتنظيف ما كان بأظفاره وأسنانه ومغابن

بدنه، وتطبيها بما أمكنه من طيب النبات وصنوف الدواهن العطرة، وتعهده لباسه بالتنظيف والتطيب حتى كان يتلألاً" (39). كما درّب نفسه على الرياضة للمحافظة على صحته " فتارة كان يطوف بالجزيرة، ويدور على ساحلها ويسبح بأكنافها، وتارة يطوف ببيته، أو ببعض الكدى أدواراً معدودة: إما مشياً، وإما هرولة، وتارة يدور على نفسه حتى يغشى عليه" (40).

وتبرز طريقة المشاهدة في رؤية حي بن يقظان للوجود من خلال " شدة مجاهدته هذه، فإنها كانت لا تغيب عن ذكره وفكره جميع الأشياء إلا ذاته، فإنها كانت لا تغيب عنه في وقت استغراقه بمشاهدة الموجود الأول الحق الواجب الوجود، فكان يسوؤه ذلك، ويعلم أنه شوب في المشاهدة المحضة، وشركة في الملاحظة، وما زال يطلب الفناء في نفسه والإخلاص في مشاهدة الحق، حتى تأتّى له ذلك، وغابت عن ذكره وفكره السماوات والأرض وما بينهما، وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية، وجميع القوى المفارقة للمواد، والتي هي الذوات العارفة بالموجود الحق؛ وغابت ذاته في جملة تلك الذوات، وتلاشى الكل واضمحل، وصار هباء منثوراً، ولم يبق إلا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود" (41).

وبذلك كانت تلك المشاهدات هي مصدر سعادته " وكان أولاً قد وقف على سعادته وفوزه من الشقاء، إنما هي في دوام المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود" (42). وهكذا يظهر من خلال جملة هذه المشاهد أنه وطن نفسه على الصلاح فعمل على فعل الخيرات، والمحافظة على حياته من خلال المحافظة على الطبيعة، والمحافظة على جسمه، والرأفة بمخلوقات هذا الكون وتعميره، وممارسة الرياضة، والتفكير في خلق السماوات والأرض، وحال الكون، والإنسان، والحيوان، والجماد، وتمارين النفس على الطاعة حتى بلوغها غايتها، وبذلك تحصل المشاهدة وبها تتحقق السعادة. وهذه ثمار المعرفة العقلية، والمعرفة الباطنية، والمعرفة الظاهرية، وقد تفاعل فيها المعنى مع اللغة، والوعي والذات، والجانب الاجتماعي، والأنثروبولوجي.

VI. الاستدلال العرفاني في قصة حي بن يقظان لابن طفيل:

إن إدراك تراكيب الكلام في قصة حي بن يقظان لابن طفيل يوجه الانتباه إلى جزء خاص من الحقل الإدراكي، وهذا شأن القصة العرفانية، ويجعل ردود ابن طفيل كلها تدخل في باب الاستدلال، ويجعل الدلالة مشروعاً ذهنياً.

فجاءت استدلالاته يجري فيها البرهان من الاستدلال في القول الطبيعي إلى مستوى الحجاج التداولي حين يعرض للكلام بوجوه عدّة ويقبله على أوجه مختلفة، ومن ثم تظهر استدلالاته في شكل علاقة برهانية تشكل النتيجة أحد عناصرها. فكان مدار الأمر هو الإقناع والنجاح في التواصل والإبلاغ. وذلك بوسائل مختلفة. وكان التواصل بين حي بن يقظان، وأسأل لا بد له من لغة " فشرع أسأل في تعليمه الكلام أولاً بأن كان يشير له إلى أعيان الموجودات وينطق بأسمائها، ويكرّر ذلك عليه ويحمله على النطق، فينطق بها مقترناً بالإشارة، حتى علمه الأسماء كلها (43). وبذلك جاءت اللغة في هذه التجربة "تمتلك صوتاً ومعنى تترجم بطريقة طبيعية إلى الأطروحة القائلة بأن ملكة اللغة تشارك في الأجهزة الأخرى للعقل/ الدماغ على مستويين بينيين واحد يتصل بالصوت والآخر بالمعنى" (44). وهذا ما جعل "أسأل" يعلمه اللغة، ويحكي له قصته مع الطيبة التي ربته، وبذلك ترتقي هذه القصة بالمعرفة إلى درجة التواصل، ومن ثم كانت طريقة فهم الكيفية التي يدل بها، ويفكر بها "حي بن يقظان" مسألة حيوية في إحساسه الحدسي باعتباره كائناً بشرياً مستعداً للتعامل مع اللغة، والذكاء والوعي،

والتفاعل الاجتماعي.

VI-1. قوته في الحجّة:

وتظهر في الإتيان بالدليل، في مثل قوله "وقد كان تبيّن له أن الموجود ، الواجب الوجود، متّصف بأوصاف الكلام كلّها ، ومنزّه من صفات النقص وبرئ منها.. وتبيّن له أن الشيء الذي به يتوصل إلى إدراكه أمر لا يشبه الأجسام، ولا يفسد لفسادها" (45). وهي مسألة تشبه الحديث الذي دار بين ابن جني وأستاذه أحمد بن فارس في باب القول على أصل اللغة ، ألهام هي أم اصطلاح؟.

VI-2. تعضيد الفكرة بالأدلة العقلية :

ويبرز ذلك من خلال ميله إلى حشد الكثير من الأدلة ، وتقديم الكليات على الجزئيات ، فهو يتصّفح الملموس منها "الجميع الأجسام التي في عالم الكون والفساد من الحيوانات على اختلاف أنواعها: النبات والمعادن وأصناف الحجارة والتراب والماء والبخار والتلج والبرد والدخان" (46) .

ومن ثم يعرّج على المجرد منها في قوله "إن الروح واحد في ذاته، وهو حقيقة الذات وسائر الأعضاء كلها كالآلات فكانت تتحد عنده ذاته بهذا الطريق" (47). وقوله " ثم ينظر إلى الأجسام التي لا تحس ولا تتغذى ولا تنمو من الحجارة والتراب والماء والهواء، فيرى أنها أجسام مقدّر لها طول وعرض وعمق وأنها لا تختلف " (48).

وهكذا جاءت الاستدلالات شواهد على الأدلة التي حشدها، فكان دأبه في ذلك معارف لها أحكام ضابطة لحركة لها حدّ وغاية، وشطر آخر عقلي حشد له أدلته العقلية من الواقع والحياة.

VI-3. ركننا الاستدلال في قصة حي بن يقظان لابن طفيل:

إن مركزية القرآن في إنتاج المعرفة في قصة حي بن يقظان تبرز كرافد من روافد الاستشهاد في مواضع كثيرة، يضاف إليه الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف بقدر غرض الدليل في المقام. كما نجده أيضا يقدم المحسوسات على المعنويات، في مثل قوله " فلما تبيّن له أن كمال ذاته ولذتها إنّما هو بمشاهدة ذلك على الدوام، مشاهدة بالفعل أبدا، حتى لا يعرض عنه طرفة عين، لكي توافيه منيته، وهو في حال المشاهدة بالفعل، فتتصل لذته دون أن يتخللها ألم" (49). فجاءت كدليل موصل إلى الإيمان وشاهد على وحدانية الله وقدرته، وأبانت عن العلاقة القائمة بين فهم القارئ للنص وقدرته على اكتشاف دلالاته والتفهم لمعناه.

VII. مركزية السياق المعرفي ذو الطبيعة الأنثروبولوجية في قصة ابن

طفيل:

إن المتأمل في قصة ابن طفيل يجد تمازجا من التآلف بين العقل والنص، وصورة الثقافة الواسعة التي يحملها ابن طفيل، مما يوفر له استدلالات قوية، وهو ما يظهر في هذه المفاتيح التي تثري الكثير مما ورد في قصة حي بن يقظان التي تبرز فيها مركزية السياق المعرفي ذو الطبيعة الأنثروبولوجية.

1.VII. التآلف الحاصل بين العقل والنص:

- ويظهر هذا التآلف الحاصل بين العقل والنص في ورود الكثير من العبارات التي تخاطب العقل، لتكوّن قصّة تعلّم الفكر أولا، وتشرح الكون ثانيا، وتتمتع

بصياغات محكمة بين التركيب والدلالة . فجاءت منظومة العلوم المعرفية تستهدف وصف مقدرات الذهن البشري وقدراته من لغة وإدراك وربط وتخطيط، وبذلك اختلفت المقاربة المعرفية في هذه الدراسة عن المقاربة الترابطية التي تقدّم نفسها باعتبارها مجموعة من طرق النمذجة ومسار الذكاء الاصطناعي الذي هو جزء من أداة الحاسوب، بتوازنها بين التركيب والدلالة، ومقولات الأحوال الذهنية التي يحيل عليها علم النفس انطلاقاً من الدور الوظيفي المنتظم للمسار المعرفي (50).

VII . 2 . صورة الثقافة الموسوعية:

- تقاطعت معارف كثيرة ، في قصة حي بن يقظان، جمع فيها ابن طفيل بين اللغوي، والفلسفي، والنفسي، والاجتماعي، والتربوي، والأنثروبولوجي . وهذا ما يقرّه الدرس اللساني الحديث في الغرب "باعتتماد مقاربات متعدّدة الاختصاصات؛ فنجد المصنّف الواحد يتعاضد على صناعته اللسانيّ، والرياضي، والفيزيائيّ، والمعلوماتي، والمنطقيّ" (51). وهو ما توفره العربية في موثيقها الأولى عن جدارة وكفاءة ليظهر الموجود ، وتوفره له ثقافته الواسعة . فقد كان ابن طفيل متعدّد المعارف؛ اشتغل قاضياً، كما أنه درّس العلوم العقلية والطب " (52).

VII 3 . المعرفة ذات الطابع الأنثروبولوجي في قصة حي بن يقظان لابن طفيل:

- ليس من المغالاة أن نقول إن ما جاء في قصة حي بن يقظان لابن طفيل يعبر على روح أنثروبولوجية ؛ لأنها "بمفهومها الواسع هي التخصص الذي يهتم بدراسة الظاهرة الإنسانية والتي لا جدال في انتمائها إلى مجموعة الظواهر الطبيعية" (53). وهذا الذي تحقّق في نص حي بن يقظان، لابن طفيل ، وهو يدرج من الحسي إلى العقلي ، ويسعى باستمرار لتأمين سير مجموعة من الوظائف؛ اجتماعية واقتصادية ، ودينية، وتربوية بالجوء إلى طرق مختلفة ، فيعتمد إلى صنع أدوات يستعملها ويؤطر بها حياته الاجتماعية . وحقبة زمنية معينة تنطلق من وجهة نظر هي أكثر ما تكون فلسفية. كما يتعلّم اللغة ليتفاهم بها مع من حوله. وهذه القضايا كلّها تغذي الفكر الأنثروبولوجي لهذه القصة نتعرف من خلالها على الجانب الخيالي، والأمور المفردة والشاذة وما يثير اهتمام الإنسان عندما يشاهد شبيهه هو وما يوجد بينهما من نقط مشتركة" (54) ، وإن المسار الأنثروبولوجي عن ظروف نشأة حي بن يقظان، وشؤون أموره يكشف في هذه القصة الطويلة المقصودة بالدراسة عن طريقة في العرض تتسم بالوضوح الذي يحيل القارئ مباشرة على منطقية تستند إلى حجج وبراهين فجاء الحجاج عنده في ضرب الرأي بالرأي للوصول إلى نتيجة كما يظهر في قوله: "صحّ عنده بفطرته الفائقة التي تنبّهت على أي شكل هو ، وكيفية انقطاعه بالسطوح التي تحده. فنظر أولاً إلى الشمس والقمر وسائر الكواكب " (55) وهي أفكار كشف من خلالها أن الأرض كروية ، وحركات الكواكب السيارة.

إنه تفحص للظاهرة الإنسانية ، وعلاقتها بالظواهر الطبيعية، وما يمكن ملاحظته من أشكال الحياة الموجودة لدى الكائنات الحية الأخرى.

ومن ثم جاءت مختلف الأسئلة الكامنة في القصة مألوفة لدى القارئ، و فكرها مفتوح على المستقبل، وما يمكن أن نتعلّمه من أشياء جديدة حول الإنسان. وهذه القضايا كلّها تغذي الفكر الأنثروبولوجي لهذه القصة ونعرف من خلالها الجانب الخيالي، والأمور المفردة، وما يثير اهتمام الإنسان عندما يشاهد شبيهه هو، وما يوجد بينهما من نقط مشتركة وما نحمله نحن عن معتقدات ماضي الإنسانية، وكيف لهذه الخصوصيات أن تنتظم على غرابتها فيما بينها على نحو أكثر انسجاماً من الظواهر التي استقطبت اهتمام الملاحظ.

وهكذا جاءت قصة حي بن يقظان لابن طفيل أشبه بتفحص للظاهرة الإنسانية ،

وعلاقتها بالظواهر الطبيعية، وما يمكن ملاحظته من أشكال الحياة الموجودة لدى الكائنات الحية الأخرى. وإذا تساءلنا هل تقدم الأنثروبولوجيا أشياء جديدة على ما ورد في هذه القصة، فإننا نجد أن الأطر التي تحدد عادة الإنسان وأنشطته تحمل خصائص مشتركة يلجأ إليها الإنسان. وهو ما قام به حي بن يقظان، فقد عمد إلى تعلّم لغة منطوقة، وذهب للبحث عن العيش ضمن جانب اجتماعي لا يترك مجالاً للصدفة في كل ما يمت لعملية الاجتماع البشري. فهو يعمد إلى صنع أدوات لحل مشكلات حياتية، ويلجأ إلى تقنيات تؤكد قدرة النضج العقلي لدى الإنسان، وتشبه حياته في بعض دقائقها قصة موسى عليه السلام الذي ألقته أمه في اليم، وقصة آدم أبو البشرية في اتخاذه من أوراق النبات ستراً لغطاء جسده. وكلّهما عمليات لملء الفراغ المفاهيمي في القصة وإكمال النقص في بناء النموذج. وهي الأشغال التي تطلبها الوظيفة الإنسانية، وتنتمي إلى مجموعة الظواهر الطبيعية.

VIII. خاتمة:

كشفت قصة حي بن يقظان لابن طفيل عن التآلف الحاصل بين العقل والنص في تلك المرحلة، والتمازج بين اللغوي، والفلسفي، والتربوي، والأنثروبولوجي، وتنوع جملة تمثيلات التواصل في حقل المعرفة بين العقلي، والباطني، والظاهري، وصورة الثقافة الموسوعية التي سادت في تلك المرحلة، وجملة استدلالاتها، وما يمكن أن نتعلّمه من أشياء جديدة حول الإنسان والكون. وبذلك تدخل هذه الكتابات فيما يمكن أن يعرفه الإنسان عن جملة الأشغال التي تطلبها الوظيفة الإنسانية، وتنتمي إلى مجموعة الظواهر الطبيعية. وهي معرفة تتوفر على توازي مطلق بين التركيب والدلالة، وطابع أنثروبولوجي محقق يرى الحياة الاجتماعية نسفاً تترابط فيه كل الأوجه المكونة له فيما بينها.

- وقرّ ابن طفيل لنصّه كل شروط التواصل، وكل الاصطلاحات الفلسفية ومفرداتها في الحوار الذي دار بين شخصيات قصته الطويلة، كما أخذ الواقع الاجتماعي في الاستعمال. فكان العمل القولّي الذي يصهر البنية والدلالة هو إنتاج ملفوظ يتوفر على دلالة؛ وهي مشروع من المشروعات الذهنية، فضلاً على انسجام هوية النص ووحدته وغناه بمفردات التحليل التداولي، وتلك أبرز عناصر التعالي النصّي في قصة حي بن يقظان.

- حقّق البحث في قصة حي بن يقظان لابن طفيل حديث التعدّد الثقافي، والاجتماعي، والنفسي، والتربوي، والانثروبولوجي كمظهر من مظاهر الاتجاه العرفاني. كما أبان عن روح القصّ الذي احتفى به ابن طفيل فعمل على ملء الفراغ وإعادة إكمال النقص من خلال بناء نماذج تعيد التوازن الذهني لبناء صورة تمثيلية شمولية تمثل المعرفة الموجودة آنذاك، وبلورتها بصورة مفاهيم تميّز بين الأشياء وعالم الكون.

المراجع

1. المعجم الوجيز، مجمع اللّغة العربية، القاهرة، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميرية، 1992، مادة عرف، ص: 415، ومادة: أدرك، ص: 226.
2. صابر الحباشة وآخرون، دراسات في اللسانيات العرفانية؛ الذهن واللّغة والواقع، المملكة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الأولى 1441هـ/2009م، ص: 7.
3. مصطفى غلفان، اللسانيات العربية وأسئلة المنهج، دار "ورد" الأردنية، الطبعة الأولى 2013، ص: 41.
4. صابر الحباشة، مسارات المعرفة والدلالة، كنوز المعرفة، الطبعة الأولى 1432هـ/2011م، ص: 38.
5. هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن أحمد بن طفيل القيسي، ولد في الشمال

- الشرقي من قرطبة، وأمضى فترة من حياته مع أمير الموحدين يعقوب ابن يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن، وتوفي سنة 1185 م في مدينة مراکش ودفن فيها .
6. صابر الحباشة، مسارات المعرفة والدلالة، ص: 40 .
7. ابن طفيل ، حي بن يقظان، دار المحابر، الروبية المحمدية، 2009 ، ص: 10 .
8. نفسه ، ص: 11 .
9. نفسه ، ص: 12 .
10. نفسه ، ص: 12 ، 13 .
11. نفسه، ص: 13 .
12. نفسه، ص: 5 .
13. نفسه، ص: 15، 16 .
14. نفسه، ص: 21 .
15. نفسه، ص: 24 .
16. نفسه، ص: 25 ، 26 .
17. نفسه، ص: 42 .
18. نفسه ، ص: 121 .
19. نفسه، ص: 124 ، 125 . .
20. نفسه، ص: 121 .
21. صابر الحباشة، مسارات المعرفة والدلالة، ص: 51 .
22. أبو بكر بن طفيل، حي بن يقظان، موفم للنشر، الجزائر 2011 ، التقديم : زواوي بغورة .
23. ابن طفيل، حي بن يقظان، دار المحابر، ص: 52.
24. نفسه، ص: 54، 55 .
25. نفسه ، ص: 55 .
26. نفسه، ص: 57 . .
27. نفسه، ص: 40 .
28. نفسه، ص: 34 .
29. نفسه، ص: 68 .
30. - نفسه، ص: 121 .
31. نفسه ، ص ن.
32. أبو بكر بن طفيل، حي بن يقظان، موفم للنشر، الجزائر 2011 ، التقديم : زواوي بغورة.
33. ابن طفيل، حي بن يقظان، دار المحابر، ص: 60.
34. نفسه، ص: 69 .
35. نفسه، ص: 77 .
36. نفسه، ص: 92، 93 .
37. نفسه ، ص: 103 .
38. نفسه، ص ن.
39. نفسه ، ص: 103 ، 104 .
40. نفسه ، ص: 104 .
41. نفسه ، ص: 107 .
42. نفسه ، ص: 97 .
43. نفسه، ص: 126 .
- 44 - نعوم تشومسكي، أفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل، ترجمة عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، الطبعة الأولى 2009 ، ص: 45 .

- 45 - ابن طفيل، حي بن يقظان، دار المحابر، ص:88 .
46 . نفسه، ص: 52 .
47 . نفسه، ص: 53 .
48 . نفسه، ص: 55 .
49 . نفسه، ص: 89 .
50 . انظر : صابر الحباشة، اللّغة والمعرفة، رؤية جديدة، دمشق عاصمة الثقافة العربية، سورية ، الإصدار الأول 2008، ص: 9 .
51 . فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر ، اللاذقية ، الطبعة الأولى 2007 ، ص:6 .
52 - انظر حياة ابن طفيل، مقدّمة قصته حي بن يقظان، موفم للنشر، الجزائر، 2011، تقديم: زاوي بغورة.
53 .كلود ليفي ستروس، الأنثروبولوجيا في مواجهة مشاكل العالم الحديث، ترجمة رشيد بازي، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء - المغرب ، الطبعة الأولى 2019، ص: 18 .
54 . نفسه، ص: 23.
55 . ابن طفيل، حي بن يقظان، دار المحابر، ص: 75، 76 .